حكايات أبو حبيب

كان يزورنا من الأسبوع للأسبوع!

وكانت زيارته تبدأ من يوم الإثنين بعد الغروب، وتنتهى فجر يوم الثلاثاء.

يأتي حاملًا فوق ظهره شيكارة (الكسارة).

والكسارة هي غذاء الكتاكيت والعصافير، كما يكون حاملًا معه أخبار وحكايات القرية، فهو بلدياتنا.

ولم يأكل أو يشرب عندنا أي شيء خلال فترة إقامته، فهو يريد المبيت فقط، وينام مبكرًا حتى يستطيع القيام مع أذان الفجر للذهاب إلى سوق الثلاثاء سيرًا على الأقدام، وهو على بعد مسافة ليست قليلة من منزلنا، وذلك لتسويق بضاعته من كسارة الحبوب.

فقط يطلب فنجانًا مملوءًا بالماء وقليلاً من الملح الذي يذيبه في الفنجان، ثم يقطر من المزيج في عينيه قبل النوم..

وكنا نتعجب من ذلك، ولكنه كان يقول لنا إن الملح يجلي النظر!

كنا نجتمع ليحكي لنا حكايات وأخبار القرية التي يحضرها لنا كل أسبوع ويحكيها بأسلوبه الشيِّق..

- أول مرة حكى لنا حكاية «حسن أبو حسين» الذي رفض زاوج ابنته (روحية) من محامٍ، مفضلًا عليه حميدة ابن أخيه حبًا فيما سوف يرثه من أطيان من أخيه الحاج حامد بعد عمر طويل.

وكانت البنت تبكي بالدموع ليل نهار رافضة ابن عمها، فهي لا تحبه ولا تطيقه، ثم إنهما كالإخوة، حيث تربيا وترعرعا في بيت واحد، ولكنها تريد الشاب المحامي ابن البندر رغم أنها لم تره.

لكنها أخيرًا تزوجت ابن عمها رغم أنفها وأنف أمها.

- وثاني مرة حكى لنا حكاية «أم نادية» (الهجالة) بائعة الطيور والبيض والزبدة، وكيف أن تلميذًا بمدرسة الصنايع ضحك على ابنتها نادية وغرر بها ثم تركها مثل (البوكلة المكسورة).

وذهبوا إلى أهله سرًا وهم ناس من أعيان البلد، ولكن الولد أنكر فعلته بشدة، فسكتوا خوفًا من الفضيحة.

وكانت «الولية» المغلوب على أمرها، تفطر البنت وتغديها وتعشيها يوميًا (بالشبشب) إلى أن يبان لها صاحب!

- وثالث مرة حكى لنا حكاية (الجثة) التي وجدوها ذات صباح طافية على «وش» المياه في البحر الذي يقسم البلد نصفين، وأخرجوها بعد إبلاغ الجهات المختصة، وكانت الجثة لامرأة مخنوقة بمنديل، ومشوهة الوجه لإخفاء ملامحها، وأثبتت التحريات والتحقيقات بعد عناء، لولا وجود (وشم) على ذراعها الأيسر.

واتضح أنها جثة «حسنية» الدلالة التي كانت على علاقة محرمة بطالب بكلية التربية، وهو ابن إحدى زبوناتها التي كانت تعرض عليها بضاعتها بالمنزل، ولما كان الولد يقضي أجازاته بالقرية، فكانا يتقابلان بعِلم أمه ويقضيان معًا ساعات طويلة ويكون ما يكون!

ولما فاحت رائحتها في القرية، وكان زوجها رجلاً شريفًا يأكل لقمته بعرق جبينه، استدرجها هو وأخوها إلى المزارع وخنقاها وألقيا بجثتها في البحر..

وكان الشاهد الوحيد عليهما هو ضوء القمر الذي أخذ يتلألأ على صفحة الماء.

وتم القبض على الزوج والشقيق وطالب التربية (أو ناقص التربية)! واعترفوا جميعًا بجريمتهم الشنعاء.

- ورابع مرة حكى لنا حكاية «الأستاذ جرجس أبو فرحات» المدرس بالمدرسة الابتدائية مع زميلته «نرجس» التي خطبها لمدة أربع سنوات، ثم فسخ الخطوبة لعدم قدرته على توفير سكن، نظرًا للارتفاع الجنوني في الإيجارات..

والجميع شاهدهما معًا داخل وخارج المدرسة خلال هذه المدة، مع أن دخله معقول من الدروس الخصوصية التي خصَّص لها حجرة في منزل أسرته وربنا فاتح عليه.

(وحلفتْ نرجس برأس أبوها ما هي متجوزة بعد كدة، واترهبنت ودخلت الدير، واللي زاروها قالوا إنها مبسوطة جدًا وفي منتهى السعادة، وحالتها النفسية أحسن من أي زوجة!).

- وخامس مرة حكى لنا حكاية الولد «مروان أبو خالد» الولد المدلل الوحيد على ثلاث بنات، الذي هجر والديه بعد سوء المعاملة التي تلقاها منهما، وعدم الوفاء باحتياجاته، عقابًا له على عدم رغبته في التعليم.

ترك مروان المدرسة وهو في الصف الخامس الابتدائي، وسار خلف (شلة العيال البايظة، ودلوقتي بيدفع الثمن غالي!).

المهم أنه ذهب إلى البندر ثم اتجه إلى محطة القطار وركب على سطح القطار المتجه إلى القاهرة حتى وصل إلى محطة رمسيس،

وعمل حمَّالًا لحقائب المسافرين القادمين والذاهبين، و»الفلوس كترت معاه».

ظل ينام على رصيف المحطة إلى أن تعرَّف على صاحب البوفيه هناك، وعندها بدأ يبيت داخل البوفيه حتى الصباح، ثم تعرَّف بعد ذلك على ناظر وموظفي المحطة الذين أحبوه لأدبه وخفة دمه.

ومرت شهور على هذا الحال وأهله لم يعرفوا عنه شيئًا، وقلبوا عليه الدنيا بلا جدوى.

وأخيرًا بدأ يرسل لهم الخطابات، ويخبرهم أنه «بيشتغل والقشية معدن الحمد لله».

ولم يذكر لهم في خطابه مكانًا أو عنوانًا طبعًا، وعندما يصادفه أحد من البلد في المحطة، كان يخفي وجهه ويجري من أمامه، و»ربنا يتولاه برحمته الواسعة».

ومر أسبوع واثنان وثلاثة ولم يحضر أبو حبيب، وغاب عنا، وغابت عنا حكاياته الشيقة.

وكنا ننتظره على باب المنزل كل يوم إثنين في موعد حضوره، ولكنه لم يحضر، كما كان والدي يذهب كل يوم ثلاثاء إلى السوق للبحث عنه، ولكنه لم يستدل عليه.

ثم ذهب والدي إلى القرية التي لم يدخلها منذ حوالي عشرين عامًا، رغم أنها بلدته، وسأل عن الرجل فقالوا له: (تعيش إنت)، إنه انتقل إلى رحمة الله من حوالى أسبوعين، ومات فجأة وهو واقف على قدميه، فما كان من والدي إلا أن ضرب كفًا بكف، ومصمص شفتيه وهو يكلِّم نفسه طول طريق العودة قائلًا:

- الدوام لصاحب الدوام، ألف رحمة ونور عليك يا أبو حبيب..

وعلمنا بعد ذلك أنه كان يعيش وحيدًا في بيت طويل عريض بعد وفاة زوجته أم العيال، وأحد من أولاده لم يسأل عنه، وكان يعيش على الدخل البسيط الذي يأتيه من (الكسارة)، دون أن يضطر لطلب المساعدة من أحد، رغم أنه كان طاعنًا في السن، وفي حاجة إلى الراحة.